أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Directeur : BAHIJ OSMAN
Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٣/٠١

AL-ĀDĀB REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085
Tél. 23-01

العدد الخامس
أيار (مايو) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 5 - Mai 1954
2ème Année

نحو مجتمع عربي أفضل

التجزيئية في المجتمع العربي

بقلم الآنسة نازك الملائكة

— ١ —

لو سئلنا * ان نصف المجتمع العربي المعاصر بكلمة جامعة تعبر في إيجاز ووضوح عن حالته الحاضرة ، لوصفناه بأنه مجتمع «قلق» ، ولأمدتنا الكلمة بمعان واسعة تشمل مختلف الجهات العملية والانفعالية والذهنية لهذا المجتمع . والقلق من وجهة النظر الاجتماعية نذير خطر يرفع صوته ليدلنا على ان جهة من حياتنا قد فقدت نقطة ارتكازها وبدأت تنهار . فهو أشبه بجرس خطر ترسله اعماقنا الصامتة وترمي به الى إنذارنا . إننا نقلق ، لأننا قد بدأنا نملك وعياً بحياة أسمى من الحياة التي نحياها ، وكأننا قد بدأنا نتجزأ الى كيانين احدهما يدرك الحاضر والآخر يدرك مستقبلاً حياً يجعله يقارن وينفعل ويبدأ بالاحتجاج . فالقلق ليس إلا رد فعل صحّي نواجه به نقص حياتنا . إنه أشبه بالحمّى التي يقابل بها الجسم الصحيح طلائع المرض المهاجم .

وهذا القلق يتخذ اشكالاً مختلفة ، منها الشكل البسيط الذي يعانيه الافراد على صورة توتّر نفسيّ مستمرّ ، ومنها اشكال معقدة أبرزها ما سنسميه هنا **بقلق المقاييس ونعني به تأرجح نظمنا وعدم ارتكازها الى مستند نظري ثابت . فنحن اجمالاً قوم حائرون لا نملك آراء مستقرة ولا نثبت على خطط ، وحتى إذا أُتيح لنا ان نختار خطة عامة فسرعان ما نتركها قبل ان نبلغ النتيجة .** وما هذا إلا لأننا ننظر الى الموضوعات من مستويات متعددة تتجاذبنا فتتداخل احكامنا وتتعدد ارتكازاتها . وليس أكثر ضياعاً من مجتمع يسمح لوجهات النظر المتعددة ان تنفذ الى حياته . فالحياة ملأى بالمفاهيم المتناقضة وما من فكرة نؤمن بها ، إلا وهناك فكرة معاكسة تعارضها . إن سلوكنا ، في هذه الحالة ، يفقد النقطة التي يمكن ان نقيسه وفقها ، ولهذا لا يمكن ان نقيسه . وهو في هذا يشبه « السرعة » التي يستحيل ان نقيسها ما لم نملك نقطة ثابتة في مكان ما ، فاذا لم يكن ثمة ثبات لم يمكن لنا قياس سرعة . وهذا الثبات المفقود في حياتنا يحرمنا من ان نتمسك بأي حكم ، فلكل قضية فيما يلوح لنا وجهان متعاكسان .

ومن هذا التقلقل الفكريّ العام تنشأ الظاهرة الكبرى التي تتغلغل في حياتنا كلها . وهي الظاهرة التي نختار ان نسميها بالتجزيئية ، ونقصد بها جنوحنا الى عزل الظواهر عن بعضها ودراستها مفصولة وكأننا نفترض ان حياتنا تتكون من مجموعة من المجالات المتضاربة التي اجتمعت مصادفة في خليط . فنحن قد اعتدنا ان نلتقط من كل مستوى من مستويات الفكر نقطة نسلط عليها الضوء وندرسها معزولة عن سائر النقاط ، فبدلاً من ان ندرس مشاكلنا باعتبارها محصلة لمختلف القوى ، نعمل على عزل هذه القوى عزلاً قاطعاً فنتناول اللغة وكأنها عنصر مفصول عن الدين ، ونرى للسياسة كياناً منفصلاً عن قضايا الفنّ ، ويخيل الينا ان العلوم دائرة معارضة لدائرة الآداب ، وتلوح لنا الشؤون الاقتصادية بعيدة عن

(*) نص المحاضرة التي ألقتها الآنسة نازك الملائكة في بيروت مساء السبت ١٠ / ٤ / ٥٤ بدعوة من هيئة المحاضرات العامة التابعة لجمعية المقاصد الاسلامية في بيروت ، من سلسلة « نحو عالم عربي أفضل » .

شؤون الجمال والعواطف . وهكذا تنتهي بنا كل دراسة الى زاوية ضيقة نصدر منها احكاماً مصطنعة تزيدنا حيرة وارتباكاً.

والحق اننا نكاد ننسى ان حياتنا ليست في حقيقتها غير ترابط متين يشد هذه العناصر كلها في وحدة وثيقة ، حتى تكاد كل ظاهرة ان تحتوي في عالمها الاصغر على صورة كاملة للظواهر الاخرى . اذ بين مختلف العناصر التي تتألف منها حياة المجتمع علاقة تشبه قانون السبب والنتيجة ، فكل عنصر انما هو نتيجة للعناصر الاخرى وسبب لها ايضاً .

ان تشبيه المجتمع البشري بالكائن العضوي ليس تشبيهاً عاطلاً . وأحد اوجه الشبه ان أي نموّ في وظيفة من وظائف الجسم الاجتماعي لا بد ان يكون مصحوباً او متبوعاً بنمو مماثل في الوظائف الاخرى . كما ان درجة التعقد في الوظيفة الواحدة يمكن ان يعد مظهراً دالاً على تعقد الوظائف الاخرى. وينشأ هذا عن تداخل الوظائف التي توشك ان تشبه الأواني المستطرقة التي تستوي فيها سطوح السوائل ، فما تكاد احدى الجهات تعلو حتى يتسرب العلو ويتوزع على الجهات الاخرى . وهكذا فاننا لا نبعد كثيراً عن الحقيقة عندما نحكم بان ثورة في اساليب العمل يحدثها مصنع صغير للكراسي ، لا بد ان تصحبها على وجه ما ثورة في نواحي الحياة الاخرى . وهذا لأن الثورة في مصنع الكراسي لا يمكن ان تكون قد نبتت نبوتاً سحرياً في لحظة من الزمن ، وانما هي نتيجة اجتماعية معقدة لعشرات من الاسباب التي لا بد ان تكون قد مست في تطورها جهات المجتمع الاخرى . هذا فضلاً عن تأثير هذه الثورة في مختلف المجالات التي تمسّها . واذا ضربنا لهذه النقطة مثلاً نختاره من الفن ، استطعنا ان نقول ان الفنان الذي يثور على القيم الباهتة في دائرة فنه ويحل محلها قيماً اخرى جديدة انما هو في آن واحد مظهر لثورة تتهيأ في جهات اخرى من المجتمع ، وعامل مؤثر لا بد يؤدي الى ارتفاع المستوى في سائر النواحي . وذلك لأن من طبيعة المجتمع ان تتوازن فيه القوى كما تتوازن سطوح السوائل ، فما تكاد جهة معيّنة فيه تتطور وتصعد في نموها حتى تتوتر الجهات الاخرى وتتصدع اسسها وتبدأ بالانفجار .

والنتيجة المباشرة لهذا الاتجاه التجزيئي هي ظاهرة (التضخيم) التي نلمسها في مختلف نواحي حياتنا . فنحن نمنح بعض الظواهر قيمة اعظم مما تستأهله الى جانب الظواهر الاخرى، فنضخم احد عناصر المجال تضخيماً شديداً لا نفطن اليه لاننا قد عزلنا هذا العنصر عن سائر العناصر . وخير مثال لهذا ما نراه اليوم من حدة الاتجاه الى اعتبار السياسة هي الموضوع الوحيد الذي ينبغي ان يشغل ذهن المواطن العربي ، حتى يكاد الفرد الاعتيادي يؤمن ايماناً قاطعاً بان كل نشاط آخر غيرها انما هو ترف بالنسبة اليها ، خاصة ما تعلق بشؤون اللغة والفن والجمال .

ان هذا الاسلوب في التقييم ينمّ عن ايماننا بامكان قيام المجتمع على ظاهرة واحدة فيه ، بحيث تصبح هذه الظاهرة مقياساً نحكمه في الظواهر الاخرى. ونحن كلنا قد قابلنا نموذج الرجال الذين يرفضون الفن في احتقار لأنه لا يطعم خبزاً. وهم في الحق يذكروننا بالاسلوب الذي ناقش فيه (فولستاف) قيمة الشرف في بعض مسرحيات شكسبير . فقد وقف يفلسف الشرف على الاسلوب التالي : « أفي وسع الشرف ان يداوي ساقاً ؟ كلا . او يداً ؟ كلا . أيشفي ألم جرح ؟ كلا . الشرف اذن لا يفيد في الجراحة ؟ كلا . إذن فما حاجتي اليه ؟ » وهذا مطابق تماماً للحجج التي يوردها معاصرونا رداً على كل نشاط لا يتعلق بشؤون الحياة المعاشية. فكما ان الشرف من وجهة نظر الجراحة عاطل من المعنى ، كذلك يبدو الفن الذي لا يستطيع ان يساهم في الانتخابات ولا ان يعدل معاهدة . وانما ينبع الخطأ في حالة (فولستاف) وحالتنا من التضخيم الذي نختار ان نصبه على جهة واحدة من جهات مجال واسع ، بحيث تستحيل هذه الجهة مقياساً نحكمه في سائر الجهات، بدلاً من ان نعثر على المقياس الكبير الذي يتحكم في الجهات كلها. فالشرف والجراحة والشعر والسياسة كلها اشياء ضرورية في حياة المجتمع ، ومن السذاجة ان نتخذ واحداً منها مقياساً لفائدة الآخر . وذلك لأن هناك مقياساً واحداً يتحكم فيها كلها وهذا المقياس هو الانسان .

- ٢ -

ان المظهر الأول للتجزيئية في المجتمع العربي هو انه ما زال في صميمه مجتمعاً محافظاً ، على الرغم من كل ما اعتراه من تطور في المظاهر . فان التطورات قد دهمته كما تدهم موجة جارفة ، فانغمس فيها دون ان يغير اتجاهه الداخليّ . ومن ثم فان النواة ما زالت تحتفظ بشكلها على صورة نظم وقوانين . او بكلمة اخرى ان الذي تغير هو الظروف فحسب، اما الأسس فما زالت هي الاسس التي عرفها اجدادنا منذ قرون طويلة .

والمحافظة مرتبتان ، مرتبة يكون فيهـــا الانسان المحافظ مختاراً يحكّم حاجاته في موقفين فيختار أحدهما ، ومرتبة اخرى واطئة تصبح فيها المحافظة اجبارية. فالمرتبة الاولى ايجابيـة وهي قد تكون صفة المجتمعات الفتية العاملة . اما المرتبة الثانية فهي ملازمـة للمجتمع الهرم ، وهي اشبه بالتكلس الذي يعتري شرايين رجل شيخ . او لنقل ان المحافظة في هذه الحالة ضرب من الشيخوخة ، وامتدادها عبر القرون يتضمن فصلاً تاماً بين ظروف أمة ما وقوانينها . وهو فعل لا يستند الى حجة فكل وجهات النظر تدحضه .

« اننا نريد مجتمعاً تتنفس فيه الطاقة الانسانية المبدعة وتخصب وتنوع ، مجتمعاً يرتبط فيه القانون والاخلاق والعمل جميعاً بالحاجة البشرية ، فهذا هو المجتمع الأفضل الذي ينبغي ان نتطلع اليه . »

فمن وجهة النظر البايولوجية يبدو ان المحافظة مخالفـة لخط النموّ الذي تفضله الحياة الكاملة لانها في حقيقتها نوع من السكون يعتري العقل الانسانيّ . اننا حين نقدس المقاييس التي انحدرت الينا جاهزة، انما نقرّ برغبتنا في الاّ نعكر الراحة التي يتيحها لنا هـذا التقديس . والحق ان التقديس يمثل بالاعتبار البايولوجي النقطة المنخفضة في موجـــة الحياة . لقد خلق الذهن الانساني ليتجدد بالآراء الجديدة تجدداً ابدياً ، وهذا التجدد ضروري لانه ينميه ويمنحه المرونة وقابلية البقاء ، ومن ثم فان سكون المحافظة لا بد ان يكون مضراً به . ان السكون ينبغي ان يكون فاصلا بين حركتين ، وهـذا هو المقياس البايولوجي . انه كالنقطة المنخفضـة في الموجة فائدتها انها تهيء لقمة جديدة . والموجة عندما تتريث في نقطة منخفضة انما تجمع طاقتها للحركة التالية ..وكذلك المحافظة فهي في الحقيقة فترة تجمّع يهدأ خلالها الذهن الانسانيّ ليقفز القفزة التالية . فاذا طالت هذه المحافظة قروناً دل الأمر على ان المجتمع قد هرم . ان الموجة التي تبقى في نقطتها السفلى لم تعد موجة على الاطلاق .

وهكذا تصبح المحافظة تحدياً للحيـاة والحاداً بها ، لانها عندما تَفرِض فكرة جامدة على حياة انسانية متطورة تعمل قبل كل شيء على ان تشلّ العقل وتسلمه الى السكون . وهي لا تتوصل الى هذا الا بان تفصل الانسان الواحد الى جزءين في احدهما الاندفاعة الاجتماعية العمياء ، وفي الآخر العقـــل المتقاعد الذي تراكم عليه الغبار فوق رفّ مهجور . وهكذا ينتهي بنا التقديس الى ان يتجزأ الانسان مع انه في الاصل كلٌ متماسك ينمو صاعداً في اتجاه قواه الفطرية كلها . وليس خافياً ان هذه التجزئة التي يسببها المجتمع تدل على ان هذا المجتمـع لم يعد كفؤاً لحماية الجماعـة . فالمجتمع الذي لا يضمن تطبيق قوانينه العامة الا باللجوء الى تقسيم الانسان الواحـــد الى اجزاء مختلفة، هو حتماً مجتمع مختلّ .

والاعتراضات التي نحصل عليها من وجهة نظر التاريخ لا تقل صلابة . فالمحافظة في نظر التاريخ تتضمن الفصل بين النظم والزمن . وهذا مخالف للمفهوم التاريخيّ للقـانون وهو مفهوم تطوريّ ينشأ عن الانسجام التام بين العوامل البيئية والقوانين المفترضة لسير الحضارة ، فلكل ظرف زماني قوانينه الخاصة . ان القوانين التي تناسب الظروف كلها لا بد ان تكون قوانين يتغلب عليها عنصر العمومية وتتعالى عن التفاصيل كتلك الاقفال التي تفتحها المفاتيح كلها. انها قوانين غير تاريخية تتعلق في الفراغ بلا زمان ولا مكان . يضاف الى هذا ان استمرار نظمنا القديمة على ملائمة حاجاتنا يدل في وقت واحد على عموميتها وعلى سذاجة حاجاتنا .

والحق ان القوانين من وجهة النظر التاريخية انما هي افكار ذات ثلاثة ابعاد : بمعنى انها تلائم مكاناً ما في زمان ما فحسب . ولا ينشأ التاريخ القومي الا من تطور هـذه الافكار ونموّها الدائم مع العصور ، بحيث يمكن ان نقول على وجه ما ان التاريخ هو البعد الرابع للقانون . وهذا يجعل جمود القوانين على شكل معـين استمراراً لوضع ذي ثلاثة ابعاد وهو ما لا يمكن قبوله تاريخياً .

اما وجهة النظر القانونية فهي تضع ايدينا على مكان الجرح، وتدلنا على سر الازمة النفسية التي يعانيها الفرد العربي في هـذه الفترة من حياته . ان هناك تعارضاً مستمراً وتصادماً لا ينتهي بين المجال المفترض لسلوك الافراد وحقيقة هذا السلوك. والسبب في هذا التعارض ان الجهة النظرية من السلوك قد اكتملت واكتسبت عقوباتها في زمن ، بيـــنما يكتسب السلوك الواقع شكله من متطلبات زمن آخر لا علاقة له بالزمن النظري . او لنقل ان العقوبات تنتمي الى دائرة اخرى غير تلك التي تحدد السلوك.

ان دراسة موضوع العقوبات الاجتماعية لا بد ان تنتهي بنا

الى تلك المنطقة الحساسة التي تعارفنا على تسميتها بالضمير. ونقصد بها مجموعة النواهي والزواجر المقبولة في مجتمع ما . والمجتمع يتناول افراده منذ مولدهم فيغرس فيهم مبادىء ضميره بتفاصيلها، حتى اذا ارتكب الفرد عملاً مخلاً واخطأته العقوبة القانونية تناولته عقوبة اعماقه . فالضمير على هذا منطقة اجتماعية تكمن في اعماقنا، وهي منطقة مسوّرة لا تستطيع اقتحامها. ان المجتمع يقفلها بنفسه.

وهذه الحصانة التي يملكها الضمير تجعله قوة مخيفة في وسعها ان تهدم الحياة وتبنيها . والامر يتوقف على نوع محتوياته. ففي المجتمع الفتي الذي يستمد عقوباته من امكانيات الظروف القائمة يصبح الضمير قوة خير خصبة تدفع بالافراد الى الحيوية والحماسة وغنى الروح . اما في المجتمع المتحلل فهو يصبح طاغية مستبداً يصب العذاب على الافراد لانه يستند الى تفاصيل تعارض ظروف الحياة التي تتاح للافراد. وهذه هي حالة مجتمعنا العربي المعاصر، فهو يمر بمرحلة يتعارض فيها الضمير مع الظروف القائمة . والفرد الذي يعيش في مثل هذا المجتمع يحتمل بالضرورة وخز ضميره دون ذنب ، لان الظروف التي تسوقه الى ارتكاب العمل هي نفسها التي تحرض عليه ضميره . وهذه الحالة لا تقبل من وجهة نظر القانون ، فالاصل في كل عقوبة ان تكون مستمدة من الظروف البيئية والطبيعة الانسانية .

والحالة تثير اعتراضات مماثلة من وجهة نظر الاجتماع. وذلك لان الغرض الاساسي من وجود المجتمع هو حماية الافراد، وهذا الغرض يبدو مفقوداً في حالتنا هذه . ان المجتمع الذي يسلط على افراده ضميراً أحمق مستبداً، انما هو عدو للفرد بدلاً من ان يكون صديقاً له يعينه على ابراز مواهبه ويؤدي به الى طريق الغبطة والعمل. فهو يتطلب منه اشياء لا يبيحها مندوبه السري: الضمير، ويحيط الافراد بظروف تضطرهم الى الاخلال بواجباتهم المفروضة ثم يعاقبهم على هذا الاخلال وفق القواعد القديمة، فكأنه في هذه الحالة يخونهم ، كذلك الملك الطاغية الذي كان يسقي رجال حاشيته الخمر ثم يجلدهم لانهم يترنحون .

ان المجتمع في هذه الحالة يستحيل الى اثنين : واحد يملي الاعمال على الافراد والثاني يصدر الاحكام والعقوبات . او انه ينقسم الى اعمال تقف في جهة ، واحكام تصدر من جهة اخرى. ومعنى هذا ان شطراً منه هو الذي يرتكب الاخلال والشطر الثاني هو الذي يتلقى العقوبة . وكل هذا ينتهي حتماً الى ان المجتمع قد تفكك وتخلى عن وظيفته الاساسية، فلم يعد كياناً موحداً تنمو عناصره كلها في اتجاه واحد ، وانما بات كل عنصر فيه يتجه الى جهة خاصة في فوضى وارتباك .

ولا يقف عجز المجتمع عن حماية افراده عند حدوده السلبية وانما يتعداها الى عرقلة نموهم بالضجيج الذي يحدثه ضميره الهرم، ولذلك ينبغي الا يتحول الضمير الى قطعة جامدة عمياء تقبع في اعماقنا معتصمة بالظلام. ان الضمير ينبغي الا يكون عنكبوتاً. وعلى المجتمع ان يعمل على تطوير محتوياته تحاشياً لثرثرته والا فهو يظل يصرخ في اعماقنا ويخلق لنا عشرات من المشاكل. فهو على اثرنا ابداً ، لانه ينبع من اعماقنا الاجتماعية. وهذه الاعماق ليست ملكاً لنا .

- ٣ -

وإذا انتقلنا الى ميدان الاخلاق صادفنا الاختلال نفسه ، والاخلاق هي في الحق الجانب الفردي من القانون ، ولذلك فنحن نجد هنا السمات العامة التي وجدناها هناك ، من تجزيئية وتضخيم لظواهر معينة .

وأول ما نلحظه ان الاخلاق العربية تقيم هاوية سحيقة بين العقل والعاطفة . فالمجتمع العربي ما زال محتفظاً بالميل القديم الى اعتبار العواطف شيئاً مناقضاً للتفكير والتعقل ، ولم يزل يعدّ كبت المشاعر مظهراً ملازماً للحكمة . إنه يعتقد ان بين العقل والاحساس حرباً لا نهاية لها ، وان الانسان الذي يستحق الاعجاب هو الذي يسيطر على احاسيسه ويخلو من العواطف . والمثل الاخلاقي العربي الذي يجعل من الرقة ضعفاً ما زال ملموساً في حياتنا العاطفية، حيث نجد الرجل المعاصر لم يزل يحتقر ان يذرف الدموع حتى في أدق الحالات. كما انه على العموم يترفع عن الجهر بالحب ويعتبر هذا جانب لين في حياته ينبغي ان يطوى . وتبلغ هذه العقيدة درجتها القصوى كلما انحدرنا نحو الطبقات الشعبية العامة ، فهناك سنجد النموذج المفضل للرجل نموذجاً قاسياً ، حتى يكاد أغلب الرجال يفخرون بمقدرتهم على تعذيب قطة أو انتزاع عنق عصفور . وما هذا إلا لأن العامّي يعد الرقة والحساسية والشفقة مظاهر نسائية ... وهو يحب ان يكون رجلاً .

إن هذا الفصل بين العاطفة والتفكير يرتكز في اساسه الى النظرة القديمة التي كانت تزعم ان الانسان مقسّم الى اجزاء بعضها خيّر وبعضها شرّير . وهذه النظرة لا تملك معنى من وجهة نظر علم الحياة، فالانسان متماسك، وتقسيمه امرٌ مستحيل

علمياً . والحق ان للعواطف قيمة بايولوجية عظيمة في حيـــاة الانسان، ومن دونها تتوقف الحياة. وقد وجدت مشاعر الفرح والحزن والحب والمقت والقلق والشوق والطموح والغـــيرة لا لتكون قيوداً للانسان ، وإنما لتؤدي وظيفـة فيزيولوجيـة رئيسية . وهذا يجعل مبدأ العقل المجرد مستحيلاً. إننا عاطفيون لأننا نحتاج الى ان نكون عاطفيين . اما ان نحاول قتل عواطفنا فهو يؤدي حتماً الى ان نضيق إمكانياتنا الانسانية .

هذا فضلاً عن ان الحكم بالشر والنقص على جهات معينـة من الانسان ، يفترض مقياســـاً خارجياً لا تعرفه البشرية . فحياتنا لا تقدم لنا ولو نموذجاً صغيراً لهذا العقل المثالي المجرّد الذي تتجه بنا اخلاقنا الوضعية الى تقليـده ، لأننا في الحقيقـة لا نعرف أية صورة اخرى غير صورة إنساننا الأرضيّ هـذا . فهو الحقيقة الوحيدة التي نملكها ، ولذلك ينبغي ان نتخذه نقطة نبدأ منها كل مقياس اخلاقيّ ندين به . فالانسان قد وجـد في الطبيعة قبل ان توجد آراؤنا الصغيرة فيه وفلسفاتنا ، وإنـــه لتطاول منا ان نجلس على كراسيّنا المريحة في ايام الصحو والرخاء فنصدر عليه احكاماً تبتر فيه هذه الجهة وتقص تلك وفق رغباتنا.

إن هذا المجتمع الذي يجزىء الانسان الواحد الى شرّ وخير إنما يعلن عجزه عن حماية افراده ، ومثله في هذا كمثل خياط مبتدىء يصنع سُفّازاً ذا اربعة اصابع لكفّ إنسانيـة طبيعية ، ثم يطلب بتر الاصبع الخامسة بدعـــوى انه شرير لا فائدة له . ذلك ان هذا الخياط يصنع ظروفاً مبتذلة تجعـل شيئاً رائعاً كالاصبع يبدو شراً ينبغي بتره . وهذا ما يصنـع المجتمع العربي بالانسان . فهو بدلاً من ان يتناوله ويصوغ له مقاييس تقدّر ميوله وإمكانياته الفطرية وتعينها على الانطـلاق والحيويه . يصوغ مُثُلاً ضيقة تخنق طاقته وتشلّها .

اننا نعتقد ان الانسان هو معجزة الطبيعة الكبرى التي لم يكشف عنها الغطاء بعد وان اية شريعة تؤدي بالطبيعة الانسانية الى الانكماش والضمور وتجعل القوى الروحيـة تتبدد وتضيع لا بد ان تكون شريعة صبيانية تلحد بالطبيعة المبدعة الحكيمة ، وليس الشرّ والنقص إلا في قوانيننا التي نريد ان نصحح بها اخطاء الطبيعة الكاملة .

اما المظهر الثاني للنجزيئية في ميدان الاخلاق، فهو اسلوبنا في النظر الى قضايا الاخلاق ، وهو اسلوب يستند الى الاعتقاد بان للاخلاق مقياساً ثابتاً لا تغيره العصور ولا البيئات، لأنه نهائي ولأنه غاية نفسه ، وكأن مبدأنا هو : « الاخـــلاق من أجل الاخلاق . » بدلاً من : « الاخلاق من اجل الانسان . »

ان الحقيقة التي ينساها الاخلاقيون عندنا هي ان الانسان ليس موضوعاً مجرداً، وانما هو حادث بايولوجي . او انـه ليس كتلة وإنما هو عملية . ومن ثم فان كل ما يتعلق بهذا الانسان ينبغي ان يكون متصفاً بالحركة وقابلية التطور . فالسكون نقطة لا تمر بها حياتنا ، وإنما تنتهي اليها . اننا نسكن عندمـا نموت . **وعلى هذا فان مفهوم الاخلاق الانسانية لا يمكن ان ينطوي على سكون وإنما يجدر به ان يكون تحركاً دائماً في مجال الحياة الواسع** . والحركة الفاعلة يجب ان تكون هي الأساس في كل نظام اخلاقي بشري ، لان الحركة هي حـاجة الحياة القصوى. ونحن إذ أقررنا بهذا، فسنرى فوراً ان الاخلاق التي يدين بها المجتمع العربي اخلاق سكونية سالبة تتخـذ نقطة ارتكازها في المظهر لا في الفعل .

وخير دليل على السكونية في اخلاقنا احترامنا التقديسي لفضائل مثل العفة والنزاهة والاباء والصدق فهي كلها لو دققنا فضائل سالبة لا تنطوي على فعل وانما تستند الى امتنـاع . فالعفة مثلاً ليست فعلاً وانما هي امتناع عن فعل وكذلك النزاهة والصدق والصبر والاباء والانفة وغيرها . اننا لا نحاول إطلاقاً ان ننكر المضمون الجميل لبعض هذه الصفات، إلا اننا ننكر ان تكون لها فائدة ايجابية للحياة . والمضمون الفلسفي للخير يجب ان يشمل أداء عمل يفيد الانسانية ويضيف الى جمال الحيـــاة وخصوبة الارض ويشق للنوع البشري طرقاً جديدة الى الامام. اما الامتناع فهو خلق سكوني، لا تنبع فائدته إلا من اعتبارات موضوعة لا تعترف بها الحياة .

ان إلحاحنا على الفائدة البايولوجية التي يجب ان تتوخاها كل اخلاق انسانية يجعل النظرة العربيـة الى الاخلاق نظرة غائيّة هدفها الاخلاق لا الانسان . والمجتمع العربي يحتاج اليوم الى ان يوسع دائرة اعتباراته ، فيدخل الاخلاق الايجـابية في دائرة الضرورات وينحي الاخلاق السكونية عن المركز . ان المودّة والكرم والرحمة والاقدام والعمل والثبات واللطف صفـات اجدر بالعناية والاحترام من الصفات السلبية التي ذكرناهـا . ومن المؤسف ان يمضي المجتمع في اعتبارها ضروباً من الترف الخلقي لا تدخل في المقاييس الاساسية . فان في هـذا تجزيئية تعزل الأخلاق عن الحياة ، فتقيّم الفضائل والرذائل تقييمـاً

يجعل الفرد يعتاض عن تحقيق الخير تحقيقاً ايجابياً ويقنع نفسه بخيال الشرف السلبي الذي يظنه يغني عن كل صفة اخرى. ذلك انه لا يسرق ومن ثمّ فهو نزيه ، وهو لا يكذب فهو إذن صادق، وهو لا يشكو فهو صبور، وهكذا يحصل الفرد العربي على التخلق دون ان يكلفه هذا جهداً . وهذا هو النقد الاكبر الذي نوجهه الى نظامنا الاخلاقي ، فهو نظام يفصل بين الاخلاق وموضوعها .

— ٤ —

واذا انتقلنا الى موضوع المرأة صادفنا التجزيئية في مظاهر اكثر تنوعاً وتعدداً . فالموضوع كله قائم على تجزئة للمجتمع تقسمه الى نساء ورجال . وقد جرت العادة على ان نتحدث عن مشاكلنا الادبية والسياسية والاجتماعية مصنفة ونعزل من بينها مشكلة خاصة نسميها مشكلة المرأة، وكأن المشاكل الاخرى هي مشاكل الرجال فحسب . وهكذا نرى الصحف والاذاعات تخصص زوايا مبتذلة صغيرة تتناول فيها الاشياء التي تفترض الا شيء سواها يهم النساء كالازياء وتسلية الضيوف والمجاملة وشؤون المنزل وغير ذلك مما لا تخلو منه حياة الانسان دون ان يكون عنصراً تقوم عليه الحياة .

وقد ادت هذه التجزيئية الى مشكلة تقسيم العمل بين الرجل والمرأة . فانه تقسيم استندنا فيه الى الجنس لا الى الكفايات الطبيعية والميول، فما دامت المرأة امرأة فهي ملزمة بان تقصر نشاطها على العمل المنزلي مهما كانت ملكاتها الفطرية واتجاهاتها . ولقد كان لهذا التقسيم نتائج عاطفية واجتماعية عميقة في سلوك المرأة واخلاقها ، وذلك لسبب بسيط هو ان الاعمال المنزلية لا تستنفد من القوى العقلية والنفسية التي يملكها الانسان الا جزءاً يسيراً محدوداً ، فهي تكاد لا تزيد على ان تكون نشاطاً يدوياً محضاً يمرّن جهات قليلة من وظائف الجسم الكثيرة المعقدة . ومن ثم فهو لا يستفيد من كل ما ركب في المرأة من طاقة انسانية محتشدة. وهذا ليس تبذيراً لا يبرره شيء فحسب، وانما هو ايضاً مصدر خطر على كيان المرأة بما يسببه لها من تفاوت في مستوياتها الوظيفية .

وتنتج عن هذه التجزئة الوظيفية ثلاث نتائج نلمسها واضحة في حياة المرأة العربية. **واول نتيجة ان جهة خاصة من المرأة تنمو بينما تتوقف الجهات الاخرى** . ويبرز هذا على شكل ركود ملحوظ في القوى الذهنية والعاطفية ... اما النشاط الذهني فنحن نتفق على انه نادر بين نسائنا المعاصرات حتى يكاد الرجل المتوسط يعدّه شذوذاً حين يظهر. واما النشاط العاطفيّ فلعلنا لن نتفق حوله. فالرأي الشائع هو ان المرأة تملك عواطف غريزية مكتملة ، الا انها لا تملك افكاراً ، وهذه العواطف في نظرهم تغني غناء كاملاً عن الذهن الذي لا تستعمله المرأة. وقد ساعد الفنانون على انتشار هذه الفكرة عندما صوروا الأمومة وحنانها وغير ذلك .

على اننا لو رجعنا الى قواعد النمو العضويّ لوجدنا ان من غير المقبول منطقياً ان تنمو جهة معينة في حياتنا الانسانية دون الجهات الاخرى. والعاطفة ليست منفصلة عن الفكر لتنمو منعزلة عنه ، وذلك لانه يديرها كما يدير الجسم كله . ومعنى هذا ان المرأة ان كانت لا تملك ذهناً مرناً نامياً فلا مجال لان تملك مشاعر متكاملة ، فالتفكير والشعور كلاهما محصول اجتماعيّ فيزيولوجيّ ومن ثم فهما ينموان معاً ، وحين يتوقف احدهما ويشل يتعرض الآخر الى التجربة نفسها .

والحق ان المرأة في حالتها الحاضرة لا تملك عواطف ناضجة، فهي مفلسة في الجهة الشعورية افلاسها في الجهة العقلية. ان العاطفة ليست كمية ثابتة تمنحها الطبيعة للفرد وانما هي كتلة تنتظر النمو والاتساع والنضج . انها تكبر مع الانسان وتخضع لنوع من التربية الدقيقة المتصلة . ولهذا نجد أن الانسان المثقف يملك من العواطف اضعاف ما يملك الجاهل . لا بل ان رجل الشارع ليس مكتمل العواطف على الاطلاق ، وانما هو رجل عاطفي فحسب . ونقصد بالعاطفية هنا انه يملك ما يملكه كل مخلوق حي من استجابات شعورية لمواقف معينة . وهو كثيراً ما يلوح عاطفياً بحكم العادة الجارية التي تحتم نوعاً من الاستجابة لنوع من المواقف . وهذا شيء غير العاطفة المكتملة بالمعنى الاجتماعي الواسع . فالاكتمال العاطفي حالة عالية معقدة من الانفعال يعرفها الناضجون فحسب. انها نموّ روحيّ يجعل الانسان يحسّ بعواطف غنية تجاه الاشياء فينفعل للجمال ، ويتذوق الحب الرفيع ، ويحسّ بالنفور من القبح والجور والتناقض، ويضحك من اعماق قلبه وقت الضحك ، كما يبكي في حرارة في حالات الحزن ، وتعتريه الحماسة والشوق والقلق المبهم وغير ذلك من الانفعالات التي هي مزية انسانية تميز المثقف الناضج عن الجاهل الفج. فاين هذا الاكتمال الشعوري في حياة المرأة ؟ كل ما هناك انها شعورية بالمعنى الفظ الذي شرحناه ، وهذا هو الموقف

— التتمة على الصفحة ٧٦ —